

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث أبي مالك الأشعري -رضي الله عنه- "الظهور شطر الإيمان" ٢

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فتحدثنا في الليلة الماضية عن قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((الظهور شطر الإيمان))، وذكرنا الاحتمالين في معناه، إما أن يحمل على أن المراد بالإيمان: الصلاة، فتكون الطهارة هي شرطها، ومن ثم فإن المناصفة هنا يمكن أن تكون ظاهرة، أو يكون المراد بالإيمان المعنى المتباادر المعروف فتكون الطهارة تشمل الطهارة الحسية والمعنوية، وهذا لا إشكال فيه.

يقول: ((والحمد لله تملأ الميزان))، الحمد لله بمعنى: أنك تضييف المحامد لله -عز وجل-، والأوصاف الكاملة، وتنثني عليه -تبارك وتعالى- وتذكرة بما هو أهله، فهذا هو الحمد.

((تملا الميزان))، الميزان المعروف ذو الكفتين، والله -عز وجل- يزن الأعمال يوم القيمة، ويزن الناس -أيضاً- أصحاب هذه الأعمال، والله -عز وجل- يقول: {وَالْوَرْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ٨]، فيؤتى بالرجل -كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم- السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة^(١).

فالناس يوزنون، وكذلك الأعمال توزن، وتعرفون حديث البطاقة التي قد جيء لرجل بسجلات عظيمة في كفة السيئات فيها ذنبه ومعاصيه وجرائمها، فوضع فيها تلك البطاقة المكتوب عليها كلمة التوحيد، لا إله إلا الله، فطاشت بتلك السجلات جميعاً^(٢).

وهكذا هذه الكلمة -الحمد لله-، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن المراد لفظها، مع فهم معناها، وتحقيق مقتضاهما، والتحقق من ذلك علمًا وعملاً.

وبعض أهل العلم يقول: كل ما يؤدي هذا المعنى من حمد الله -عز وجل- وإن لم يكن بالتزام هذه اللفظة، لكن النبي صلى الله عليه وسلم -أخبرنا: أن الحمد لله تملأ الميزان، فالظهور -والله تعالى أعلم- أن التعبد لله -عز وجل- بهذه اللفظة باللسان وبالقلب وبالجوارج، بفهم معناها يملي الميزان، وهذه الأذكار إنما يكون أثرها وأجرها أبلغ وأعظم كلما كان الإنسان أكثر فهماً وإدراكاً لمعناها، وتحقيقاً لمقتضاهما.

١ - عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إله ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيمة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال أقرعوا ابن شتم: {فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا}})، أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكهف (٤٤٥٢)، رقم: (٤٤٥٩/٤)، ومسلم، كتاب صفات المناافقين وأحكامهم (٤٢١٤٧)، رقم: (٢٧٨٥).

٢ - أخرجه الترمذى، كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٤٢٦٣٩)، رقم: (٤٢٤٥/٥)، وأبي ماجه، كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيمة (٢٤٣٧/١)، رقم: (٤٣٠٠)، وأحمد (١١٥٧٠)، رقم: (٤٣٠٠/١١)، وصححه الألبانى.

فالذي يقول: الحمد لله بلسانه وقلبه غافل لا يكون كالذى يقول هذه الكلمة ويعرف مراميها ومعاناتها، حال الحامد لله -عز وجل-، فالناس يتقاصلون تقاضلاً عظيماً في هذه الأذكار، ولذلك إذا أراد الإنسان أن ينتفع بهذه الأذكار حتى في الأمور الدنيوية كالرقيقة، أو التعاویذ التي يقولها في أول نهاره، أو آخره، أو عند نومه فإنه كلما كان أكثر تحققًا، وفهمًا لمعانيها، وإحضاراً للقلب كلما كان التأثير، هذا الإنسان يمكن أن يرقى بطرف لسانه، أو يقول هذه الأذكار بطرف لسانه، ولكنه قد لا يحصل له من التأثير ما يحصل لمن كان مستحضرًا لمعانيها، فاهماً لها، حاضر القلب عند ذكره إليها، ولذلك نحن بحاجة إلى أننا نفرغ القلوب قليلاً عند أداء هذه الأذكار، فيكون ذلك أثره منعكساً على قلب الإنسان، وعلى نفسه، وهذا من أعظم ما يدّنيه، ويقربه ويرفعه عند الله -عز وجل-.

وقد ذكر بعض أهل العلم، وهو ابن شيخ الحزامين أو الحزاميين في رسالة كتبها لتلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وذكر فيها أشياء مهمة، كان يوصيهم في أول الرسالة أن يفرغوا ساعة من يومهم وليلتهم لذكر الله -عز وجل-، وتكون تلك الساعة بعيدة عن الشواغل والصوارف، يقول: وهذا قليل من كثير، يقول: لكن العبد إذا فرغ قلبه ونفسه من الأشغال والصوارف فإنه يجد أثر ذلك بعد حين، فيتفرغ قلبه لله -عز وجل-، ثم يستطيع أن يسيطر على أحواله الثلاث، وهي حاله في العلم، وحاله في التعبد، وحاله في الكسب وتطلب المعاش في الدنيا، فقد يكون فقيهاً معلماً للناس لكنه بعيد عن ذكر الله -عز وجل- وعن الخشوع، وعن التعبد، وعن حضور القلب فلا يؤثر فيه هذا العلم، وكالذى يحمل الدواء، والعلاج النافع لكنه لا ينفع به، أو يحمل سلاحاً ضاراً ولكنه لا يستعمله، فما الفائدة من هذا؟

وكذلك في أمور الدنيا كثير من الناس تشغله أمر دنياهم عن آخرتهم، فإذا حصل للعبد هذا المقصود استطاع أن يعمل بدنياه وهو في حال تقربه إلى الله -عز وجل- حتى في كسبه وسعيه في الدنيا، وقل مثل ذلك في عمله في تعليم الناس الخير، أو في عمله للأخرة، العمل الآخر الذي هو التعبدي المحسن، شعائر التعبد، الصلاة وما أشبه ذلك، فمثل هذه الأمور إذا حصلت يمتلك الميزان من أثرها.

قوله: ((وسبحان الله، والحمد لله تملأن -أو تملأ- ما بين السماوات والأرض)) سبحان الله، التنزيه لله -عز وجل- من كل عيب، ونقص في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله مما يصفه الواصفون، وتنزيهه -تبارك وتعالى- عن كل عيب ونقص يمكن أن يُتصور، أو يلحق بالله -عز وجل-، أسأل الله -عز وجل- أن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يلهمنا رشدنا، ويقيينا شر أنفسنا، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.